الشيخ إبراهيم أطفيش ونشاطه الثقافي والسياسي في تونس ومصر (1886 م–1965م)

د. لهلالي إسعد/ جامعة سطيف2
د.لهلالي سلوى /جامعة سطيف2
lahlali.issaad@gmail.com

تاريخ الارسال: 2019-05-02 تاريخ القبول: 2019-05-11 تاريخ النشر:2019/05/25

الملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى إبراز عالم من علماء وادي ميزاب والجزائر ألا وهو الشيخ إبراهيم أطفيّش ،والدور الذي لعبه خارج الوطن من خلال رحلته إلى تونس طلبا للعلم لكنها أدخلت الرجل في النشاط الجمعوي والسياسي ، وبعد الحرب العالمية الأولى انتقل إلى مصر حيث نشط في ميدان الفكر والسياسة ، وأصبح شخصية معروفة من خلال تمثيله لإمامة عمان في الجامعة العربية والأمم المتحدة ، إضافة إلى إنتاجه العلمي الذي أعطى للرجل مكان مرموقة في أوساط رجال العلم بمصر.

Abstract:

This study aims to show an scientist among Mizabs valley scientists and Algeria Named Sheikh Ibrahim Atfayache and the role he played outside the country through his trip to Tunisia requiring knowledge but it Introduced the man in associative and political activity. After the First World War he moved to Egypt where he activated in the field of ideology and politics and he became a well-known figure through to Oman proper representation in the Arab League and the United Nations.

In addition to his scientific production which gave the man a prominent place among the men of science in Egypt.

key words: Mizabs Valley- Atfayech-Zaytouna-El Azhar.Elhidaya Association-El Minhadge magazine

الكلمات المفتاحية:

وادي ميزاب، أطفيّش،الزيتونة، الأزهر، جمعية الهداية ، مجلة المنهاج.

مقدمة :

تتناول هذه الدراسة موضوعا مهما يتعلق بالنشاط الثقافي والسياسي الشيخ إبراهيم أطفيش الذي يعد من الأقطاب البارزين في وادي ميزاب والحركة الإصلاحية الجزائرية ، و الشيخ أطفيش من بين العلماء الذين حملوا رسالة العلم والتربية والدفاع عن الهوية العربية الإسلامية ، حيث عانى كباقي أبناء وطنه من الظروف الاستعمارية القاسية ، التي كانت تعيشها الجزائر ولاحظ عن كثب معاناة مواطنيه من القهر والجهل والمرض والإقصاء والتهميش ، عوامل دفعته للانتقال إلى تونس إلى طلب العلم ثم إلى مصر لكن مسيرته عرفت تحولا مهما من خلال نشاطه الفكري والثقافي والسياسي واحتكاكه بعلماء ومفكرين أجلاء .

وتكمن أهمية هذه الموضوع في إبراز نشاط الشيخ إبراهيم أطفيش بمصر ودوره في التواصل بين أبناء الأمة العربية الإسلامية خاصة بين عمان والجزائر ، فكانت البداية بالعمل الإصلاحي والفكري ليتطور إلى العمل الوطني السياسي خاصة مع انخراطه في إمامة عمان ولقائه بالشيخ غالب بن علي الذي كلفه بأهم قضية وهي تمثيل الإمامة في جامعة الدول العربية وناطقا رسميا عنها لدى الأمم المتحدة .فكيف كانت الأوضاع في بلده، وماهي الجوانب التي نشط فيها الشيخ إبراهيم أطفيش ؟ وكيف ساهم نشاطه في خلق التواصل بين الجزائر وعمان ؟وماهي الأثار التي تركها ؟.

عصر الشيخ إبراهيم أطفيش

نبذة عن حياته :

ولد الشيخ إبراهيم أطفيش سنة 1305 هـ(1886م) ببلدة بني يزقن من قرى (وادي ميزاب) جنوب الجزائر هذه المنطقة التي يلاحظ الزائر إليها أن هناك شبكة متسلسلة بين الجبال الصلبة المجردة المتميزة باللون الوردي الداكن، وعاصمة هذه المنطقة هي غرداية التي تبعد عن الجزائر العاصمة بـ 600 كلم وعن قسنطينة شرقا بـ 800 كلم وعن وهران غربا بـ 800 كلم وعن تمنراست جنوبا بـ 1500 كلم ، وتوجد غرداية على ارتفاع 515 م عن سطح البحر ، وهذه الشبكة تتخللها الأودية الرئيسة وهي وادي ميزاب وروافده ، ووادي بلوح ، ووادي متليلي ، ووادي زقرير ، كما أن المناخ جميل على العموم خاصة في فصل الخريف الذي يضفي على الواحة سحرا جذابا والإنسان عندما يتأمل هذا الجمال الطبيعي يدرك أن إرادة أهل ميزاب لا تعرب المستحيل في سجلها الحضاري[1]

وفي هذه البيئة الجغرافية ولد وترعرع فيها إبراهيم أطفيش وفي عائلة كريمة متدينة وأتم حفظ القرآن في الحادية عشر من عمره ، ثم أخذ مبادئ لعلوم العربية والشرعية على يد عمه القطب الحاج أمحمد بن يوسف أطفيش ، ثم عن المصلح العالم عبد القادر المجاوي بالجزائر العاصمة ، وفي سنة 1917 شد الرحال إلى تونس ضمن بعثة علمية ، فالتحق بجامع الزيتونة وكان مثار إعجاب مشايخه ذكاء وأخلاقا وسعة علم ، وانخرط في

السياسة وأصبح عضوا بارزا في حزب الدستور التونسي بزعمة الشيخ عبد العزيز الثعالبي إلى جانب بعض زملائه في البعثة ومنهم أبي اليقظان ومحمد الثميني والشيخ صالح بن يحي ،وانتقل إلى القاهرة في سنة 1923 ، حيث وجد العمل واسعا للعمل الوطني فنشط في ميدان الفكر والسياسة وقام بأعمال جليلة في الصحافة وتحقيق التراث والتأليف إلى جانب نشاطه الاجتماعي مع الجمعيات الخيرية ذات التوجه إصلاحي إسلامي كما أنه انخرط في مكتب إمامة عمان في القاهرة[2] .

لقد تميزت الفترة التي عاش فيها الشيخ إبراهيم أطفيش بالاحتلال الفرنسي للجزائر وسوء الأوضاع في جميع المجالات سواء كانت سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية أو ثقافية .

1- الأوضاع السياسية.

ابتليت الجزائر على مدى مائة و اثنتين وثلاثين سنة بالاحتلال الفرنسي، الذي شرّد أهلها واغتصب أرضها و استباح ثروتها وخيراتها، وقد ركّز الاستعمار منذ البداية على إحكام السيطرة السياسية و الإدارية على هذه الأرض وعلى شعبها.

لقد بقيت الأوضاع السياسية مستمرة غايتها استعمارية وقد طبّقت سياسة الإخضاع بإنشاء قانون التبعيّة الأهليّة 1881م ، وهو مجموعة من العقوبات وكان الهدف منه الاحتفاظ بصلاحيات الحكام الإداريين التي منحت للضباط لكي يسيطروا على القبائل التي لم تخضع بعد ، وقد ساعدت سياسة الإخضاع حكام البلديات المختلطة و منحت لهم هذه الإجازة التي جددت عام 1927 مما أدى إلى بقاء الأهالي خاضعين لهذه العقوبات كالاعتقال الإداري و الغرامات الجماعية والمراقبة[3].

كما ساعد الفرنسيون الكولون للحصول على الحكم الذاتي المالي سنة 1900م، وخلق المحاكم الرّادعة سنة 1902م كما صدر أيضا منشور جونار[4] junard المشؤوم سنة 1906 م، الذي كان ضد الحريات المدنية ثم إصدار قانون الخدمة العسكرية الإجبارية للجزائريين سنة 1912 م[5]، وحسب أحمد توفيق المدني فالمسلم الجزائري يقوم بشكل إجباري بأعباء الخدمة العسكرية ،و يجبر على الاعتراف بها وفق قانوني 31 جانفي و 3 فيفري 1912 ، كما أن المجلس الصحي هو الذي يقر صلاحيته و يأخذ إجباريا 150 فرنكا ،ويمضي وصل استلامه لها ، كما أن هذا التجنيد مسّ سكان الجنوب وأصبحوا هم أيضا ملزمين كأهل الشمال وفق قرار 5 مارس 1921م[6].

لقد كان لاندلاع الحرب العالمية الأولى دورا هاما في انطلاق العمل السياسي نتيجة للتغيرات التي حدثت في فرنسا نفسها حيث أن تخوفها من القوة الألمانية جعلها تجند أكبر عدد من الشبان الجزائريين، وحسب شارل روبير آجيرون (Charles Robert Ageron) فإن وزير الحرب الأول أكد بأنه سيمنح للجنود الجزائريين حقّ المواطنة الفرنسية منذ5 أوت1914م، ولكل الأجانب المجندين في الجيش الفرنسي[7]،وقد طالب النواب

الأهالي عام 1915 بضرورة تقديم اقتراحات لتسهّل للمجندين وقدماء الحرب الحصول على حق المواطنة،و حسب سعد الله [8]فإن الحركة الوطنية الجزائرية حققت خلال الحرب العالمية الأولى خمسة أهداف رئيسية أولا: إنهاء فكرة إخلاص الجزائريين لفرنسا و فكرة رضاه بالحكم الفرنسي، ثانيا: نقل القضية الوطنية إلى المسرح العالمي ، ثالثا : نشاط فكرة التعاون بين الثوار و الأهالي وبين العمال و الجنود ، رابعا : أرغمت فرنسا على إدخال الإصلاحات التي تضمّنها قانون 1919 م، خامسا: حققت التعاون بين الجزائريين في الداخل والخارج، ويبدو أنّ المشاريع أو الإصلاحات الفرنسية كانت واعدة في وقت كانت فيه فرنسا منشغلة بالحرب العالمية الأولى ،ولكن عندما عاد السلام وتحقق النّصر أصبحت الإصلاحات أكثر بخلا ومخيّبة للآمال[9].

أما الحرب العالمية الثانية (1939م- 1945م) فكان لها تأثير واضح على الجزائر في وقت كانت فيه فرنسا طرفا أساسيا في الحرب ،لذلك فقد كانت فترة 1942م-1944 مليئة بالنشاط و التجارب للحركة الوطنية الجزائرية، ومع نهاية سنة 1944م أصبحت أكثر وعيا وأعمق تجربة، ودخلت في عهد التحدّي و المواجهة مع الفرنسيين انتهت بمجازر 8 ماي 1945م[10]،التي كانت منعرجا حاسما في تاريخ الحركة الوطنية وكذا الشعب الجزائري ، حيث تيقّن الفلاح و السياسي أنّ ما يؤخذ بالقوة لا يسترجع إلا بالقوة ، وقد كتب عن

وقد حاولت السلطات الاستعمارية الفرنسية أن تقلّل من شأن الحدث و تجري بعض التغييرات،فأصدرت قانونها المشؤوم في 20 سبتمبر 1947 وحسب شارل أندري جوليان (Charles Andre Gulien)فإنه يمثل أول مجهود لمنح الجزائر قانونا أساسيا، كما أن مجلس الدولة أوضح بتاريخ 27 مارس 1947م أن المقاطعات الجزائرية مقاطعات لما وراء البحار وهي ليست تابعة للمجموعة المركزية إلى جانب فرنسا وكورسيكا [11]،وحسب أحد الكتاب فالمشاريع السياسية التي كانت تعلنها فرنسا في فترات مختلفة كان الهدف منها هو امتصاص الغضب الشعبي العام ، و إدماج الجزائر في فرنسا لكن بالمقابل تلك المشاريع ساهمت في نمو الوعي الوطني ودفعت أكثر الحركة الوطنية إلى تطور ملموس في مطالبها ، خاصة الفترة الممتدة بين 1954م -1962م ، حيث عاد التلاحم بين السياسة والدين [12]، وهذا التلاحم أدى إلى انتصار الثورة التحريرية .

2- الأوضاع الاقتصادية:

لقد اهتم الاحتلال الفرنسي بالجانب الاقتصادي إلى درجة كبيرة نظرا لما تملكه الجزائر المستعمرة من خيرات وثروات إلى درجة أنّها أصبحت تصدر إلى دول أوربية أخرى خاصة المنتوجات الزراعية ، ويبدوا أن سياسة المصادرة وسن القوانين التعسّفية الظالمة التي مسّت كل ممتلكات الجزائريين أتت أكلها حيث أصبح الجزائري لا يملك شيئا بل بالعكس صار يعمل كأجير أو كخمّاس أو كموسمي في أرضه، رغم أنها ملكه والأخطر من ذلك أن الذين يسيرون معظم هذه الأراضي والممتلكات هم من المتشردين والصعاليك واللصوص الذين جلبتهم فرنسا لتعزيز مستوطناتها وخدمة اقتصادها .

وحسب أبو القاسم سعد[13] ، فالثروات والخيرات الموجودة في الجزائر كانت تذهب إلى جيوب الفرنسيين والمعمّرين حيث يقول :<< كان الكتّاب الفرنسيون يتحدثون عن التقدم المادي للجزائر، وعن مضاعفة حجم التجارة الخارجية وعن الثروة الفائضة وسيل رأس المال في الجزائر، ولكن القضية ليست ما إذا كانت هناك ثروة وتقدم مادي ودخل عال،ورأس مال،ولكن قضية من يشرف على هذه الوسائل ومن يستفيد منها فليس هناك من ينكر أنّ الكولون هم الذين كانوا يشرفون على كل وسائل الإنتاج ورأس المال التجارة الخارجية والداخلية،كما كانوا يشرفون على الميزانية لأنهم يملكون أغلبية الأصوات في المجالس المحلية>>.

والواقع أن القطاع الفلاحي كان كل شيء بالنسبة للجزائريين ،فالجزائر كانت تنتج من الحبوب على مختلف أنواعها ما يكفي لتغذية سكانها ، وكان الفائض يصدر إلى فرنسا وحتى إلى إيطاليا لإنقاذ الأوربيين من المجاعة القاتلة ،وقد اهتم المعمرون أكثر بزراعة الكروم حيث خصّصوا حوالي نصف مليون هكتار من أحسن الأراضي لغرس الكروم المنتجة لعنب الخمور[14] ، واستغلوا أحسن الأراضي وأجودها، أما الأهالي المسلمين فإن أراضيهم تكاد تكون لا قيمة لها ،فمعدل قيمة الهكتار الواحد من أراضي المعمرين تبلغ 25000 فرنك،وأنّ معدل قيمة الهكتار الواحد لأراضي الأهالي هي 3000 فرنك ،كما أن الفلاحة الأوربية تعتمد على رؤوس أموال ضخمة وإدارات وبنوك وشركات تعطيها كل ما يلزم، بينما الفلاحة الأهلية على عكس ذلك تماما[15] .

لقد ظلت السيطرة في يد المعمرين الذين كانوا يتمتعون بالقروض ويحتكرون التجهيزات ويسيطرون على الميزانية التي كانت تعطي البرجوازيين الجزائريين الفتات فقط، والهوة كانت كبيرة بين الجزائريين والأوربيين فإذا أخذنا المؤسسات الاقتصادية نجد أن نصيب 100 ألف مؤسسة جزائرية تقدر ب33مليارا من الفرنكات ،وفي المقابل مداخيل 65ألف مؤسسة أوربية تساوي 375 مليار ، فضلا عن ذلك 90% من النشاط التجاري والصناعي بقي في يد الأوربيين[16]، وهناك عامل مهم زاد في نشاط الصناعة و هو اكتشاف البترول و الغاز في الصحراء الجزائرية، حيث تم استثمار 668مليار فرنك فرنسي مقابل التجهيز في المرحلة الأولى (1953-1957)[17] ، هذه الاستثمارات الكبيرة و الأموال الطائلة هي التي جعلت السلطات الفرنسية تحرص على إضعاف الصناعة المحلية وعدم فتح الباب للجزائريين و إبقائها مرتبطة بالاقتصاد الفرنسي[18].

3- الأوضاع الاجتماعية.

لقد قام الاستعمار الفرنسي بهدم البنية الاجتماعية عن طريق سن القوانين التي تخدمه فقد صادر الأراضي من الجزائريين في الريف و استحوذ على الملكية العقارية في المدن، وعلى التجارة و الصناعة وهذا خدمة لمجموعة الأوربيين التي تشكل قسما من المجتمع الجزائري إلى جانب مجموعة الشعب الجزائري ، فالمجموعة الأولى تتكون من الأوربيين الذين وفدوا إلى الجزائر في ظل الاحتلال ،وكان منهم إقطاعيون في الريف،و رأسماليون في المدن وكانت

لهم كلمة لدى حكومة فرنسا، رغم أنّهم يختلفون عرقا ولغة وعادات إلا أنهم أمام مصلحتهم وضد الجزائريين فهم كتلة واحدة ، و أما مجموعة الشعب الجزائري فكانوا يحتلون المركز الأدنى من السلم الاجتماعي[19].

وإذا قارنا بين حياة أولئك المعمرين وحياة الجزائريين فنجد أنّ المعمرين عاشوا في رغد يتمتعون بالخير الوفير ، بينما أصحاب الأرض أهل البلاد يعيشون في حرمان وفقر[20] ، فلا إدارة تهتم بمصيرهم رغم أن هناك بعض الموظفين الفرنسيين يهتمون بالأهالي لكن ليهضموا حقوقهم و يستغلّوهم فمقابل أربعة عشرة ساعة في اليوم يتقاضى الجزائري أجرة تتراوح ما بين نصف فرنك وفرنك[21] .

لقد لعبت الظروف الاجتماعية السيئة دورها في عملية الهجرة سواء الداخلية من الأرياف نحو المدن أو الخارجية اتجاه البلدان العربية و الإسلامية وحتى البلاد الأوربية فحركة الهجرة نحو فرنسا في بداية القرن العشرين بدأت تتضح أكثر ، فإحصائيات عام 1912 تشير إلى أربعة آلاف إلى خمسة آلاف جزائري موجودين بفرنسا منهم 2000 في مرسيليا ،حيث كان يشتغلون في الموانئ و العربات العمومية و ورشات البناء [22]، وهناك عدد مماثل في باريس يعملون في مؤسسات مختلفة مثل شركة العربات العمومية(المترو) والملاحظ أنّ هذا التوجه الكبير نحو فرنسا كان بسبب الحرب العالمية الأولى وللنداء باليد العاملة ، الذي صدر عن الأوساط الرسمية،أثناء التعبئة العامة،وبين سنة 1914م إلى1917م دخل إلى فرنسا ما لا يقل عن 62521 جزائري[23] ،وهذا ما يؤكد أهمية الحرب العالمية الأولى لاسيما وأنّ فرنسا كانت طرفا أساسيا.

و حسب أحمد توفيق المدني" فمسيو فيوليت " في كتابه"هل تحيا الجزائر" ذكر إحصائيات غريبة استخرجها من التقارير العسكرية ،تبيّن سوء الحالة الصحية ، ففي مدينة الجزائر عام 1927م من بين 18607 شاب لبّى دعوة السلطة العسكرية و تبين أن 8268 لا يصلحون للخدمة العسكرية لأنّ حالتهم الصحية تمنعهم من ذلك ،ونفس الشيء بوهران ففي عام 1923م من بين 14642 تبيّن أن 5464 لا يصلحون للعسكرية ومصابون بمختلف الأمراض مثل السل وأمراض العيون أو خلل خلقي في الجسم،[24] والحق أنّ المستفيد الأكبر من الأقسام الصحية والإعانات هم السكان الأوربيون حيث أنّ عددهم ارتفع من 833ألف في عام 1926م إلى984ألف في عام 1954م بمعدل زيادة تقدر بـ 1%.

لقد كانت الظروف الاجتماعية قاسية جدا في ظل الاحتلال الفرنسي الذي أغلق كل المنافذ التي تؤدي إلى حياة اجتماعية طبيعية و بالتالي البقاء تحت القهر والذل والحرمان.

4- الأوضاع الثقافية.

لقد استمر الاستعمار في شل الحياة الفكرية ونشر الأمية في أوساط الجزائريين وذلك عن طريق إغلاق المدارس ومحاربة التعليم باللغة العربية وكذلك الإسلام فشعار الاستعمار التفقير والتجهيل والقضاء على خصائص هويته الوطنية و الحضارية[25]، وبما أنّ اللغة العربية هي أساس الثقافة العربية فقد سعى الاستعمار إلى القضاء عليها

لأنّ دفنها يعني القضاء على الثقافة العربية و الشخصية الجزائرية ، لذلك عمل على تركيز اللغة الفرنسية وجعلها لغة العمل الرسمي ، ما عدا محاكم الأحوال الشخصية الإسلامية حيث استمر العمل باللغة العربية،و أيضا في إدارة مناطق الجنوب الصحراوية النادرة السكان، ففي عام 1904 م أصدرت الإدارة الفرنسية قرارا يمنع التعليم بدون رخصة.

والحق أن التعليم العربي لعب دورا هاما في الحفاظ على الشخصية الجزائرية، كما أنّ عمليات التعليم لم تنحصر في المدرسة بل في أماكن مختلفة بما في ذلك المساجد والمدارس و النوادي ، فالمساجد تمثّل الدين الإسلامي وهي الهدف الثاني بعد الوضع السياسي الذي ركّز عليه الاستعمار و محاولة تمسيح الجزائريين و الدليل هو أنّه لما صدر في فرنسا قانون سنة 1905 القاضي بفصل الدين عن الدولة و طبق في الجزائر بموجب مرسوم 27 سبتمبر 1907م ، لم يشمل هذا القانون الدين الإسلامي إلا نظريا بينما شمل عمليا المسيحية و اليهودية ، و كانت تتبع في المساجد طريقة " السلف الصالح" لتعليم القرآن و السنّة وكذا الوعظ و الإرشاد[26]، رغم أن معظمها حوّل إلى كنائس ومستودعات حتى أنّ الإدارة الاستعمارية أصبحت هي التي تتصرف في المساجد و تعيّن موظفيها وكان الهدف هو إضعاف المسلمين واحتقارهم ،ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل امتد إلى القضاء الإسلامي الذي يعد من أكبر المناصب وأهمّها لأنّ القاضي هو المنفذ بالشّرع للأحكام وفق كتاب الله تعالى و سنة رسوله (ص) ، ومما زاد في سوء حالة القضاء صدور قرار نوفمبر سنة 1944م الذي أباح للمحاكم الفرنسية مزاحمة المحاكم الإسلامية في دائرة نفوذها ، حتى أصبح الناس مخيّرين في رفع قضاياهم إلى محاكم إسلامية أو فرنسية[27] .

لم يقتصر الجانب الثقافي التعليمي على المساجد و الزوايا بل كان للجمعيات والنوادي دور حاسم ،حيث نشطت أكثر في بداية القرن العشرين فمن أهم الجمعيات التي زرعت البذور الأولى للنهضة الوطنية نجد "الرشيدية "التي أسست عام 1894م، والتوفيقية عام 1908و غيرها ، حيث كانت المحاضرات تلقى باللغتين العربية و الفرنسية[28]، وأما النوادي فظهر العديد منها في الشرق والغرب مثل : التقدم ، الاتحاد ، نادي صالح باي الذي تأسس عام1908م فهو أهم نادي و الأكثر نشاطا ،وكان دور الجمعيات و النوادي يقوم على نشر المعرفة و التنوير الاجتماعي رغم أنّ بعضها يدعو الفرنسيين أنفسهم للأعمال الخيرية دون طرح أي رأي معارض من شأنه أن يوقفها[29].

لقد حاول الاستعمار الفرنسي أن يجرّد الجزائري من مقوماته الشخصية الثقافية فحارب التعليم العربي واللغة العربية وحاول فرنسة الجزائريين، كما أنّه حارب الدين الإسلامي سعيا منه لمسخ الجزائريين وشد الخناق على الجمعيات و النوادي و الصحف والقضاء على عادات و تقاليد هذه الأمة العربية المسلمة، و استمر في هذه السياسة إلى غاية طردهم عام 1962م .

2- نشاطه الثقافي و السياسي:

كما ذكرنا سابقا في سنة 1917 التحق الشيخ إبراهيم أطفيش بتونس طالبا للعلم لكنه انخرط في العمل الوطني ، وقد تكونت في تونس جمعيات تظم الجاليات الجزائرية التي شعرت بضرورة التضامن مع بعضها للتنسيق من أجل القضية الوطنية أو القضايا الاجتماعية ، فتكونت جمعية الوفاق التي أسسها طلبة وادي ميزاب واعلنت أن مهمتها الاحتفال بالعلماء وعظماء البلاد والإسلام وتخليد المآثر والذكريات ، وهي جمعية تجمع بين النشاط الطلابي والنشاط الاجتماعي.

لقد كانت جمعية الطلبة الجزائريين بتونس نشطة وعدد أفرادها كثر كما كانوا يتعاطون السياسة في أغلبهم وقد زاد عددهم منذ بدأ الشيخ بن باديس يرسل منهم أو يوجههم للدراسة في الزيتونة ، ومن نشاطهم إصدار نشرة وتنظيم محاضرات واستقبال كبار رجال لعلم الجزائريين الذين يزورون تونس أو يمرون بها والكتابة في الصحف عن إحياء المناسبات والذكريات الدينية والوطنية وفي كل عام كانت تتخرج دفعات جديدة من جامع الزيتونة ، وتعود الجزائر وتمارس التعليم والمعروف أن عددا من الطلبة الجزائريين انظموا أيضا إلى الأحزاب التونسية وأصبحوا قادة فيه خصوصا خلال العشرينات والثلاثينيات والقرن العشرين وعلى رأسهم الشيخ إبراهيم أطفيش والأخضر السائحي ومفدي زكرياء ومحمد العربي واحمد حماني وغيرهم.

ولما أبعدته السلطات الفرنسية إلى مصر منذ 1923 وجد المجال واسعا وخصبا للنشاط في المجال الثقافي والسياسي ، فقد أصدر وترأس مجلة المنهاج ما بين 1925 إلى 1930 التي عرفت بتوجهه السياسي والاجتماعي القويين ، فكانت تنشر مقالات لكتاب عرفوا بعدائهم الصريح للاستعمار الأجنبي تكشف عن مخططات الإنجليز والفرنسيين الاستيطانية في الحجاز والشام والمغرب العربي بأسلوب تحليلي عميق ، وفي الميدان الديني والاجتماعي كانت ترد على مقالات التغريبين المعجبين بالمدنية الغربية المشككين في ثراء الحضارة الاسلامية وقدرتها على التطور ، ومن ثم فإنها منعت من دخول كثير من البلاد العربية و الاسلامية ، وما لبثت بعد المضايقات السياسية ومتاعب مالية أن توقفت ، فأسند الشيخ أطفيش رخصة صدورها إلى زميله في الكفاح الوطني محي الدين الخطيب و كان ذلك سنة 1931 ، فأخذت تصدر في شكل جريدة محتفظة بالعنوان نفسه " المنهاج"

ويضيف المؤرخ أبو القاسم سعد الله أن مجلة المنهاج أصبحت لسان حال الجزائريين في مصر وقد ساعده فيها الشيخ سليمان الباروني وغيره[30].

وفي سنة 1940 أسندت إليه وزارة الداخلية المصرية مهمة الإشراف على قسم التصحيح بدار الكتب المصرية ، فقام بتحقيق وتصحيح أجزاء من الجامع لأحكام القرآن القرطبي ، وكذا تصحيح كتاب المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم من تأليف محمد فؤاد عبد الباقي وغيرها ، وكان وهو بدار الكتب المصرية مرجع الفتوى في العلوم الشرعية واللغوية وشارك مشاركة فعالة في تحرير مادة الموسوعة لفقهية ، ولاسيما فيما يتعلق بالمذهب

الإباضي ، وهكذا تألق الشيخ أطفيش بين زملائه وعرف بينهم بغزارة العلم ودقة التحقيق والإخلاص في العمل ، كما اشتهر بينهم بقوة عارضته إذا حاجج ورحابة صدره إذا نوقش ، وثقافته في مجالي الشريعة وعلوم اللغة إذا استفتي أو استشير ولعل ما بهر المصريين فعلا هو إخلاصه لعمله ما يقارب لأربعين سنة ، واكتسب من أجل ذلك صداقة فطاحل علماء مصر من أمثال الشيخ مصطفى المراغي ، شيخ جامع الأزهر ، ومحمد أبو زهرة ومحمد علي النجار ومحمد سلام مذكور ومصطفى عبد الرزاق ومنصور فهمي وغيرهم ، وقد شارك في المؤتمر الإسلامي الذي انعقد بالقدس سنة 1930[31].

ويذكر الشيخ المؤرخ أبو القاسم سعد الله الذي كان طالبا في مصر أنه عرف الشيخ إبراهيم أطفيش وقدم له هذا الأخير ولزملائه خدمات كبيرة في البحث كما تعرف على بعض أبنائه في مصر[32].

وأسس الشيخ إبراهيم أطفيش رفقة صديقه الشيخ الخضر حسين جمعية الهداية الإسلامية ، إضافة إلى نشاطه كعضو فعال في جمعية الشبان المسلمين الذي تربطه بزعيمها الحسن البنا صداقة حميمة ، وفي أواخر الخمسينات وبداية الستينات أصبح عضوا فعالا في جمعية تعاون جاليات شمال إفريقيا ، لذلك فقد أفاد الشيخ إبراهم أطفيش القضية الجزائرية حيث وقف لمؤامرات الاستعمار الفرنسي بالمرصاد كشفا وفضحا لا يكتفي بما يكتبه بقلمه في مجلة المنهاج بل كان يستنهض للكتابة أشهر الأقلام الوطنية المصرية ، من أمثال زكي باشا ومحي الدين الخطيب ومحمد علي الطاهر وغيره ، كما كان له الفضل الكبير في إزالة الكثير من الأخطاء التي كانت عالقة بأذهان بعض الباحثين عن الإباضية وصحح الكثير من المعلومات التي تناقلتها المصادر التاريخية[33] .

فالإباضية حسب الشيخ بكير بن سعيد أعشت عقيدة وليست عرقا لأن كثير من الناس يعتقدون أن الإباضية لا علاقة لها بالجنس و العرق و الدم إطلاقا، لذلك كثير من العرب البربر و الفرس و السودانيين اعتنقوا هذا المذهب منذ القرن الأول الهجري إلى يومنا في عمان، الجزائر و تونس و ليبيا و زنجبار و بعض الدول الإفريقية الشرقية الساحلية.

و يضيف أن المتمعن في المصادر التاريخية الاسلامية القديمة يدرك أن المؤسس الأول للمذهب الإباضي هو العلامة الفقيه أبو الشعثاء ، جابر بن زيد الأزدي العماني العربي المسلم الذي ولد سنة 18 و 22 للهجرة ، في مدينة الفرق العمانية ، أما وفاته فكانت بالبصرة سنة 93 هجري. و قد أخذ العلم على يد الصحابة رضي الله عنهم في البصرة و الكوفة و المدينة و مكة[34].

وأهم نشاط مارسه الشيخ إبراهيم أطفيش هو عضويته في مكتب إمامة عمان بالقاهرة ،حيث أسند إليه الإمام غالب بن علي التعريف بقضية عمان في المحافل الدولية والجامعة العربية ،وسافر من أجل ذلك إلى عمان وإلى أمريكا ناطق رسميا في الأمم المتحدة والواقع أن الإمام غالب بن علي جاء إلى مصر أيضا للدفاع عن إمام عمان وليجد الدعم اللازم خاصة بعد خلافة الإمامة في عمان الداخل – بعد وفاة محمد بن عبد الله الخليلي

سنة 1953- حيث قسمت عمان فعليا بموجب اتفاقية السيت المبرمة بين سلطان مسقط و إمامة عمان في 1953 ووقع الصدام بين السلطان سعيد بن تيمور والإمام غالب ، وكان صداما مسلحا وقد استعان الأول بالقوات البريطانية أما الثاني فقد توجه كما ذكرنا الى مصر و طلب الدعم منها بالمال و السلاح و من السعودية و العراق ، فكانت العراق لتدريب المجاهدين في الصفوف الامامية أما مصر فكانت تدرب المشاة و الجيش بشكل عام ، و كانت السعودية الحاضنة السياسية لتحركات الامام غالب الدبلوماسية .

و ساهم في انضمام الامامة الى جامعة الدول العربية، و تمت الموافقة على انضمامها لكن بشكل جزئي أو تمثيل فقط ، فقد واجهت الجامعة مشكلة في تصويت الدول حيث أنها تحفظت على مسألة استقلال الامامة عن السلطنة بسبب الضغط البريطاني، و قد عين الامام غالب الشيخ ابراهيم أطفيش ممثلا عن الامامة في جامعة الدول العربية في القاهرة و كان ناطقا رسميا عن الامامة لدى الامم المتحدة حيث أن الشيخ من أصل جزائري وهو اباضي يسكن في مصر.

و يبدو ان الشيخ ابراهيم أطفيش قد استفاد من تجربة القاضي غالب بن علي كما أن هذا الاخير وضع الثقة في الشيخ أطفيش نظرا لعلمه الواسع و شخصيته القوية و نشاطه الكبير على الساحة المصرية خاصة العلاقات التي كانت تربطه بعلماء و مفكرين مصريين لذلك فكان دفاعه قويا عن قضية امامة عمان و القضية الجزائرية ضد السيطرة الاجنبية الانجليزية و الفرنسية[35].

وفاته و آثاره:

في أخريات حياة الشيخ ابراهيم أطفيش اشتد عليه مرض في " البروستاتا " استدعى اجراء عملية جراحية عاجلة ، غير أن القدر كان اسبق فوافته منيته بعد أيام قليلة من اشتداد المرض ، فانتقل الى رحمة الله و ذلك يوم 20 شعبان 1385 هـ الموافق لـ 13 ديسمبر 1965 ، و صلى عليه في جامع المطرية الشيخ محمد المدني عميد كلية أصول الدين بالأزهر الشريف ، و شيعت جنازته بحضور كثير من العلماء و رجال الفكر في مصر ، ووري جثمانه في مقبر آل الشماخي ، كما أوصى.

آثاره : كان الشيخ أطفيش يملك قلما سيالا و أفقا واسعا تجود عليه بعطاء فكري ثري و الذي يبدو من خلال مراسلاته أنه ألف في مواضيع شتى و لاسيما ما يتعلق بالمذهب الاباضي تاريخا و فقها، و حسب الدكتور محمد صالح ناصر هناك آثار لم يتم العثور عليها رغم البحث عنها .

أما في ميدان التأليف و التحقيق فنجد ما يلي :

- مقالات كثيرة في مجلة الفتح و الزهراء لصاحبهما محب الدين الخطيب ، و هو من اعز اصدقائه والمتعاونين معه[36].

– ألف كتاب الدعاية الى سبيل المؤمنين : نشره سنة 1923 ، وهو كتاب في قضايا الوقت التي يتعرض لها العالم الاسلامي ، اضافة الى فوائد العلوم الاتية التاريخ و الجغرافية و الفلك و الانشاء (الادب) ، و الصحافة و الصحة و اللغات الاجنبية و ترجم فيه العلماء أمثال الثميني و أطفيش و ابن مسكويه ، و عالج فيه موضوع التقليد و التجديد ، و قد أهدى كتابه الى روح عمه المذكور معتبرا اياه من المجتهدين و حمل ابراهيم على الادعياء و المفسدين و من يتذرعون بالدين و يخفون غايات شخصية ، و لهم صلات بالسلطة الاستبدادية ، و ذكر الاحزاب الاصلاحية التي ظهرت و من عرضها من الخاملين و قال " وطننا اصيب منذ امد ببعض الحائرين ، فجرو عليه الغباوة و الجهالة و لكن اشخاصا تصدوا لذلك و نادوا بالنهضة و العلم و خدمة الدين ".

يتلخص الكتاب في كونه دعوة الى الاصلاح و الى الدين الصحيح في نظره و الى العمل من أجل ذلك ، و المحافظة على ثوابت الدين و احياء من اندرس من المبادئ و رفض الاستكانة و الجمود و الدعوة الى مجارات العاملين من الامم ، و قال ان الفلسفة جيدة في حد ذاتها و انها هي التأمل في آيات الله و لا تعني كما يفهم البعض سوء العقيدة في الدين و الالحاد فيه ، و داعى ابراهيم أطفيش الى أن يتعلم المفتون و الفقهاء شتى العلوم بما فيها الهندسة و الكيمياء ، لان الكثير من المستحضرات تأتي من أوروبا ، فاذا أفتوا كانوا على بينة ، و في نظره أن الغربيين أهل الجد و الاجتهاد و على المسلمين ألا يقفو أمامهم مكتوفي الايدي[37] .

– شرح كتاب الملاحن لابن دريد، وطبع عدة مرات في كل من مصر و عمان.

– النقد الجليل للعتب الجميل (رد فيه على محمد بن عقيل العلوي الذي طعن في مذهب أهل الحق و الاستقامة)، و قد صدر بالقاهرة لأول مرة سنة 1924م، ثم أعيد طبعه بعمان عن مكتبة الضامري للنشر و التوزيع سنة 1414هـ/1993م

– الفرق بين الإباضية و الخوارج. طبع عدة مرات في الجزائر، و مصر، و عمان.

و قد أشار أبو اسحاق في مراسلاته للشيخ أبي اليقظان إلى عدة مؤلفات أنجزها أو هو في صدد إنجازها و ظلت مخطوطات لم تر النور، و لم يعثر عليها إلى حد الساعة، و هي:

- موجز تاريخ الإباضية.
- المحكم و المتشابه.
- عصمة الأنبياء و الرسل.

- الأقوال السنية في أحوال قطب الأئمة، أشار إليه في هامش كتاب الدعاية إلى سبيل المؤمنين.
- القطب اطْفَيَّش.
- صلاة السفر.
- منهاج السلامة فيما عليه أهل الاستقامة.
- تفسير سورة الفاتحة.
- الفنون الحربية في الكتاب و السنة.
- مختصر الأصول و الفقه للمدارس.
- كتاب النقض.

و في ميدان تحقيق التراث نجد له ما يلي:

- تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان للشيخ السالمي في جزأين. مطبوع عدة مرات بعمان.
- شرح النيل و شفاء العليل، معتمد الإباضية في الفقه، الأجزاء الثامن و التاسع و العاشر، مطبوع عدة مرات في مصر، و الجزائر، و لبنان، و السعودية، و إيران.
- جامع أركان الإسلام، من تأليف سيف بن ناصر الخروصي العماني، مطبوع عدة مرات بمصر، و عمان.
- شامل الأصل و الفرع، من تأليف القطب اطفيش، طبع عدة مرات بمصر، و الجزائر، و عمان.
- مسند الإمام الربيع بن حبيب في الحديث، طبع عدة مرات في مصر، و الجزائر، و عمان.
- الذهب الخالص، من تأليف القطب اطفيش، طبع عدة مرات في مصر، و الجزائر، و عمان.
- كتاب الرسم، من تأليف القطب، و من شرحه و تحقيقه، طبع عدة مرات في مصر، و الجزائر، و عمان.

- كتاب الوضع (مختصر في الأصول و العقيدة) من تأليف أبي زكريا يحي الجناوي، طبع بالجزائر، و مصر، و عمان عدة مرات[38].

خاتمة:

من خلال ما سبق ذكره يمكن القول أن الشيخ إبراهيم أطفيش يعد مصلحا و عالما من علماء الأمة العربية الإسلامية حيث كان رجل دين و ثقافة و سياسة ، و رغم ذهابه إلى تونس للدراسة إلا أنه تأثر بما كان يحدث فيها من تطورات ساهمت في تكوين شخصيته ، خاصة بعد انتقاله إلى مصر أين وجد المجال واسعا لنشاطه خاصة تأسيس مجلة المنهاج للدفاع عن القضية الجزائرية و انخراطه في جمعيات دينية و إصلاحية و نبوغه في التأليف و التحقيقات.

و الواقع أن نشاط الشيخ إبراهيم أطفيش الثقافي و الديني جعله ينتقل إلى مرحلة العمل السياسي خاصة بعد تعرفه على العديد من رجال العلم و الفكر و السياسة بمصر ، و استطاع أن يكسب تقديرهم و احترامهم بل تعدت العلاقة إلى بلدان عربية إسلامية أخرى مثل عمان حيث تعرف على القاضي غالب بن علي هذا الرجل العظيم الذي دافع و ناضل عن قضية بلده ، و عن إمامة عمان و كلف الشيخ إبراهيم أطفيش الجزائري بتمثيل إمامة عمان في جامعة الدول العربية بالقاهرة، و كان ناطقا رسميا عنها لدى الأمم المتحدة، فزادت الروابط اكثر بين عمان و الجزائر و تطورت فيما بعد خاصة البعثات الطلابية .

و كما يقول الشيخ العلامة محمد علي دبوز الإباضي : " أن هذا الرعيل الأول من المصلحين كان على هذا الصفاء و على التحابب في الله ، و على العمل بحماس و استمرار فكان الله معهم فنجحوا ، و بارك الله لهم في نفوسهم و كل أشيائهم، و لعل الخلف يعرف سر النجاح فيزدادوا تمسكا به، فيكونوا دائما على نجاح ذلك السلف الصالح إنشاء الله".

الهوامش :

[1] - بكير بن سعيد أعوشت : وادي ميزاب في ظل الحضارة الإسلامية دينيا ، تاريخيا ، اجتماعيا ، المطبعة العربية غرداية ، 1991، ص ص 20-22 .

[2] - بكير بن سعيد أعوشت : وادي ميزاب في ظل الحضارة الإسلامية دينيا ، تاريخيا ، اجتماعيا ، المطبعة العربية غرداية ، 1991، ص ص 20-22

[3] د. محمد صالح ناصر، أبو إسحاق إبراهيم أطفيش ، www.istiqama.net/olama/abou-isaaq.htm

[4] شارل روبيرأجيرون: تاريخ الجزائر المعاصرة، ترجمة عيسى عصفور ، ط1 ، منشورات عويدات، 1983 ، ص ص 104-105.

[5] جونار كان عندئذ حاكما عاما للجزائر وقد بعث بمنشور إلى رؤساء العمالات الثلاث في البلاد أمرهم فيه بغلق مقاهي الجزائريين المشتبه فيهم و منع المهرجانات الجزائرية في النوادي المشكوك فيها ، وبخصوص الأمن أن يسحبوا كل رخص حمل السلاح ...،أنظر أبو القاسم سعد الله ، **الحركة الوطنية الجزائرية (1900-1930)**، ج2 ،ط4 ،دا ر الغرب الإسلامي ، بيروت: 1992 ص 106.

[6] أبو القاسم سعد الله : المرجع نفسه ص 106 .

[7] أحمد توفيق المدني : **كتاب الجزائر** ، ط2 ،نشر دار البليدة ، الجزائر: 1963، ص ص 330-331.

[8] Charles robert ageron : **les algériens musulmans et la France (1871-1919)** ، tome 2، (p .u.f) paris 1968، p.1190 .

[9] أبو القاسم سعد الله:المرجع السابق،ص321.

[10] المرجع نفسه،ص280.

[11] أبو القاسم سعد الله : **الحركة الوطنية الجزائرية** ، ج3 ، ط4 دار الغرب الإسلامي، بيروت: 1992، ص224.

[12] شارل أندري جوليان: **إفريقيا الشمالية تسير** ، ترجمة المنجي سليم وآخرون، الدار التونسية للنشر ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، تونس: 1976، ص 352.

[13] رابح تركي : **التعليم القومي و الشخصية الجزائرية (1931 – 1956)** ، ط2 ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر:1981 ، ص 74.

[14] أبو القاسم سعد الله: **الحركة الوطنية الجزائرية**، ج2، المرجع السابق ،ص ص92-93.

[15] محمد العربي الزبيري: **الثورة الجزائرية في عامها الأول**،ط1،دار البعث، قسنطينة، الجزائر: 1984م،ص ص 40-41

[16] أحمد توفيق المدني: المصدر السابق ، ص ص 356-357.

[17] Mohamed harbi : **1954 la guerre commence en Algérie** ، édition complexe،Bruxelles ، 1998 pp.89.91.

[18] Jean-Claude Martens : **le modèle algérien de développement bilan d'une decemie (1962-1972)**، (p.S. N) d'édition et de diffusion ،Alger ،1973، p.25.

[19] رابح تركي :المرجع السابق، ص ص 89-90

[20] رابح تركي: المرجع السابق ،ص ص 91-93.

[21] محمد خير الدين :**مذكرات** ؛ ج1،ط2،مؤسسة الضحى ، الجزائر: 2002،ص270.

[22] فرحات عباس: **حرب الجزائر وثورتها (ليل الاستعمار)** ،تعريب أبو بكر رحال ، مطبعة فضالة ،المحمدية ،المغرب: د-ت، ص115.

[23] الجيلالي صاري ، محفوظ قداش : **المقاومة السياسية ،1900-1954 م، الطريق الإصلاحي و الطريق الثوري** ، ترجمة عبد القادر بن حراث ، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر: 1987،ص220.

[24] المرجع نفسه، الصفحة نفسها .

[25] أحمد توفيق المدني : المصدر السابق ، ص336.

[26] أنيسة بركات : **محاضرات ودراسات تاريخية و أدبية حول الجزائر**، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر: 1995،ص 79.

[27] أبو القاسم سعد الله :**الحركة الوطنية الجزائرية** ج2، المرجع السابق ،ص ص 400- 401.

[28] حمزة بوكوشة : المرجع السابق ،ص ص 3-4.

[29] أحمد الخطيب : المرجع السابق ،ص 87.

[30] المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .

[31] أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي ، ج5 (1930-1954) ، ط 1 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت 1998 ، ص 499.

[32] د. محمد صالح ناصر، أبو إسحاق إبراهيم أطفيش ، www.istiqama.net/olama/abou-isaaq.htm

[33] أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي ، ج5 ، ص 379.

[34] د. محمد صالح ناصر، أبو إسحاق إبراهيم أطفيش ، www.istiqama.net/olama/abou-isaaq.htm

[35] بكير بن سعيد أعوشت: وادي ميزاب في ظل الحضارة الاسلامية دنيا تاريخنا، ص ص 51-52.

[36] د. محمد صالح ناصر، أبو إسحاق إبراهيم أطفيش ، www.istiqama.net/olama/abou-isaaq.htm

[37] أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي ، ج7 (1830- 1954) ، ط1 ، دار الغرب الاسلامي ، بيروت ، 1998 ، ص ص 167-168

[38] www.istiqama.net/olama/abou-isaaq.htm د. محمد صالح ناصر، أبو إسحاق إبراهيم أطفيش